«إن لم تعودوا كالأطفال...»

(متى ١٨/ ٣)

رسالة راعي أبرشيّة أنطلياس المارونيّة
سيادة المطران أنطوان بو نجم
إلى الكهنة والمؤمنات والمؤمنين
بمناسبة بداية السّنة الطقسيّة ٢٠٢٥-٢٠٢٦

بعنوان:

«التواضع طريق إلى الملكوت»

قرنة شهوان
تشرين الثاني ٢٠٢٥

رسالة راعي أبرشيّة أنطلياس المارونيّة
سـيـادة المـطـران أنـطـوان بو نـجـم
إلى الكهنة والمؤمنات والمؤمنين
بمناسبة بداية السّنة الطقسيّة ٢٠٢٥-٢٠٢٦

بعنوان:
«التواضع طريق إلى الملكوت»

«إن لم تعودوا كالأطفال...»
(متى ١٨/٣)

عالمُنـا اليـومَ يشـبهُ بـرجَ بابـل جديـدًا. النـاسُ يسـعون إلى العلـوِّ، إلى الظّهـورِ، إلى المجـدِ الذي لا يـدوم. كلٌّ يريـدُ أن يُـرى، أن يمُـدَحَ، أن يُصفَّـقَ لـه. في زمـنٍ إمـتلأ بالأضـواءِ والشّاشـاتِ، صـارَ الإنسـانُ يعبـدُ صورتَـه، ويقيسُ قيمتَـه بعددِ مـا يملكُه من مُتابـعين على منصّـاتِ التّواصُلِ الاجتماعـي، أو بعـددِ المُعْجـبين. نسيَ أنّـه خُلق على صـورةِ إلـهٍ متواضعٍ، متخـفٍّ، لا على صورة ذاتِـه المنتفخَة.

إنسـانُ اليـوم يُخفي ضعفـه وراءَ الأقنعةِ، ويتزيّـن بالـكلماتِ المفخّمةِ والمظاهر اللامعـة. يتنافسُ لا ليبنـي، بـل ليَهـزمَ الآخـر. يظـنُّ أنَّ العظمـة تُقـاسُ بالسـلطةِ أو بـالمالِ أو بالنفوذِ، ويـنسى أنّ المجـدَ الحقيقـيَّ هـو في المحبّـة التي تتنـازلُ لتَخـدمَ وتقـدّمَ ذاتَها عـن الآخرين. قلوبُنـا أصبحتْ متحجّـرةً بالغـرورِ، عاجـزةً عـن الإصغـاء إلى صـوت مَـن خلقهـا وأبدعها. نريـد أن نربـحَ العالم فنـخسرَ أنفسَـنا، نُشـيّدُ أبراجًـا مـن كبريائنا، فتتهـاوى عند أوّل نسـمةٍ مـن الحقيقة.

كـم نحتـاجُ اليـومَ إلى نعمـةِ الإنحناءِ والصِّغرِ أمـامَ اللّه. كم نحتـاجُ اليومَ الى أن نتعلّمَ من يسـوعَ المتواضـعِ والوديـع، الـذي غسـلَ أقـدامَ تلاميـذَه ليعلّمَنـا أنّ الطريـقَ إلى المجدِ يمـرُّ عبرَ التواضع والخدمةِ.

أحبّائي، أبناء وبنات الأبرشيّة الذين أحّب،

في بدايـةِ هـذه السّـنةِ الطقسـيّةِ الجديـدةِ، أودُّ أن أشـاركَكم كلمـةً مـن الإنجيـلِ تمـسُّ جوهـرَ دعوتِنـا المسيحيّة وهـي اليوم بمثابـةِ نداءٍ نبويٍّ يوقـظُ القلوبَ: «أَلــحَقَّ أَقُولُ لَكُم: إِنْ لَـمْ تَعُودُوا فَتَـصِيرُوا مِثْـلَ الأَطْفَـال، لَـنْ تَدْخُلُـوا مَلَكُـوتَ الـسَّمَاوَات» (متى ١٨/ ٣)، مُسـتلهمًا عظـةَ البابا لاون الرابـع عشر التـي ألقاهـا على الكرادلـةِ بعـد انتخابـه: «أقـول هـذا لنـفسي أوّلاً، بصفتـي خليفـةِ بطـرسَ، وأنـا أبـدأ رسـالتي هـذه كأسـقفٍ للكنيسـةِ في رومـا، والمدعـوَّةِ إلى أن تترأسَ الكنيسـةَ الجامعـةَ بالمحبّـة، بحسـب التّعـبيرِ المعـروفِ للقدّيـس إغناطيـوس الأنطـاكيّ. فهـو، بيـنما كان يُقتـاد وهـو مقيّـدٌ بالسّلاسـل إلى هـذه المدينـة، مـكان استشـهاده الوشـيك، كتب إلى المسـيحيّين فيهـا قـال: «سـأكون حقًّـا تلميـذًا ليسـوع المسـيح، عندما لن يـرى العالم جسـدي» (الرّسـالة إلى أهـل رومـة،٤). كان يـشير إلى الوحـوش التـي ستفترسـه، وهـذا ما حـدثَ بالفعل، لكـن كلماتـه هذه تذكّرنـا بالتزامٍ لا يمكن أن يتخلّى عنه أيُّ شـخصٍ في الكنيسـةِ يمـارسُ خدمةَ السّـلطة وهـو أن نختفـي ليظهرَ المسـيح، وأن نـصيرَ صغارًا نحـن لكي يُعرَفَ ويُمجَّـدَ هو كما كان يـردّدُ يوحنـا المعمـدان «عَلَيْهِ هُـوَ أَنْ يَزِيـد، وعَلَيَّ أَنَا أَنْ أَنْقُـصَ» (يو ٣/ ٣٠)، وأن نبذل أنفسَـنا إلى أقصى حـدّ، حتّـى لا تَنقُـصَ الفرصـة لأيّ أحـدٍ لكي يعرفـه ويحبّه.»

١. الطفل صورة التلميذ بحسب الإنجيل

ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ طِفْلٍ فأَقامَه بَينَهم وضَمَّه إِلى صَدرِه (مر ٩ :٣٦)
لـم تكن صدفة أن يضعَ يسـوعُ طفلاً في وسـط تلاميذِه. يُريد أن يُعطيَهم درسًـا يؤسّـسُ لرسـالتِهم وشـهادتهم. الطفـلُ يرمـزُ إلى البسـاطة، وانعدامِ الحسـاباتِ، والثّقـة الكاملة بمَن يعتنـي به. فهو لا يملـكُ طموحـاتٍ دنيويّةً، بل يعيـشُ في حالةِ اعتمادٍ وتسـليمٍ كلّيٍّ.

أن نصبـح مثـلَ الأطفالِ لا يعني العـودةَ إلى الطفوليّةِ، بل اسـتعادةَ ذلك الإسـتعدادِ الداخليِّ وتلك الجهوزيّـةِ الداخليّـةِ التـي تفتـحُ عقولَنـا وقلوبَنـا على اللّـه. الطفـلُ يندهـشُ، يقبـلُ بلا شروطٍ وبلا حسـاباتٍ، يغفـرُ بسرعـةٍ ويـنسى مـا تعـرّضَ لـه. فـأن نصبحَ مثـل الأطفـال يعنـي أيضًا أن «نستشـعرَ» (مـا معناه أن نشـعر بما سـيأتي). في هـذا الإطار، يؤكّـد البابـا لاون في مقابلته العامّة في ٢٧ أيلـول ٢٠٢٥ «أنّ الفعـلَ «إستشـعرَ» يصفُ حركـةً في الرّوحِ، ورؤيةً في القلب وجدَها يسـوعُ كـثيرًا في الصّغـار، أي في أنـاس روحُهـم متواضعـةٌ. في الواقـعِ، هنـاك أنـاسٌ عـلماءُ يستشـعرون قلـيلاً، لأنّهـم يظنّـون أنّهم يعرفـون. مع ذلك، جميـلٌ أن يبقـى في العقل والقلب مكانٌ يكشـف

اللّـه لنـا فيه عـن ذاتـه. ويملأ أعماقَنا شـيئًا مـن معارفِه. ما أجمـل الرّجـاء عندما تتدفّـقُ معرفةٌ جديـدةٌ في شـعبِ اللّه!».

الطفـلُ، في بسـاطتِه وثقتِـه، يكشـفُ سرّ الملكـوت أكثر من أيّ حكيـم أو فهيم. لا تعـرف عيونُه النقيّـةُ المكـرَ والريـاء، وقلبـه البريء يصـدّق الحـبّ قبلَ البرهـان. لذلـك نفهمُ الطفولـةَ بالمعنى البيـبليّ كموقـفٍ روحـيٍّ دائـمٍ يقومُ على قبـولِ للّه بلا حسـاب، بلا شروطٍ، وكثقةٍ تسـلّمُ نفسَـها إلى الآبِ كما يضـعُ الطفـلُ يـدَه في يـدِ أبيه.

أن نكـون تلاميـذَ حقيقـيّين يعنـي أن نحفـظَ فينـا دهشـةَ الطفـلِ، ونبقـى قادريـن على الفـرح بخاصـةٍ في الأمـورِ الصـغيرةِ، وعلى التواضـعِ، والإيمـانِ الحقيقـيِّ الـذي يفتـحُ قلوبنـا على النورِ.

٢. التواضع والخدمة والرحمة ثالوثُ الشّهادة المسيحيّة الحقيقيّة

التواضـعُ ليـس ضعفًـا، بل هو الحقيقةُ التـي تحرّرُ حياتَنا مـن ألمٍ يُلاحقنا كلَّ لحظـةٍ، هذا الألمُ هـو ألمُ الـ«أنـا»، ألمُ القلقِ مـن النظرةِ التي يحملُها الآخـرون عنّا، ألمُ المقارنـةِ الدائمةِ بالآخرين، ألمُ الرغبـةِ في السـيطرةِ أو في أن نكـونَ الأفضـلَ دائمًـا، ألمُ الكبريـاءِ الـذي يجعـلُ الإنسـانَ لا يحتمـلُ أن يُخطـئ أو أن يُنتقَـد. إنّـهُ ألمُ البحـثِ عـن الـكمالِ الزائـفِ الـذي لا يتحقّـقُ أبـدًا، فيعيـشَ الإنسـانُ في صراعٍ داخلـيٍّ دائـمٍ بين مـا هو عليه ومـا يريـدُ أن يظهرَ به.

التواضـعُ هـو الإعترافُ المتكـرّرُ بـأنّ كلّ الحُسـنِ والـجمالِ ومـا نملـكُ، يـأتي مـن اللّـهِ، وأنّنـا مخلوقـاتٌ محـدودةٌ لكنّهـا محبوبـةٌ ومغفـورٌ لهـا. التواضـعُ والصِّغـرُ يحرّراننـا من وهـمِ القدرةِ المطلقـةِ التـي يوهمُنا العـالمُ اليومَ أنّه بدونِهـا لا يمكنُنا أن نسـتمرَّ ونحقّقَ ذواتِنـا. إنّهما يُدخلاننا في منطـقِ الخدمـةِ التي تتحوّلُ سريعًا إلى اسـتعراضٍ أو سـلطةٍ إذا ما أُنجزتْ خـارجَ إطارِ التواضعِ. فالقلـبُ المتواضـعُ يـرى الخدمـةَ إمتيـازًا لا واجبًا، وفرصـةً لا عبئًا.

المسـيحُ نفسُـه، بتجسُّـدِه أصبـحَ طـفلاً مُحتضنًـا ضعفَنـا. لم يـختَرْ طريـقَ التّسـلّطِ بـل طريـق الخدمـة. حياتُـه بكاملهـا تشـهدُ على هذه القاعـدة: «كُلَّ مَـنْ يَرْفَـعُ نَفْسَـهُ يُوَاضَع، وَمَـنْ يُواضِعُ نَفْسَـهُ يُرْفَـع» (لـو ١٤/ ١١). إنـه المثـالُ الكامـلُ للتواضـع: «فَهُـوَ، مـعَ كَونِـه في صُـورَةِ اللّـه، لَـمْ يَحْسَـبْ مُسَـاوَاتَهُ للّـهِ غَنِيمَـة، بَـلْ أَخْلَى ذَاتَهُ، مُتَّخِـذًا صُـورَةَ العَبْد، صَائِرًا في شِـبْهِ الـبَشَر. ولَمَّا ظَهَـرَ في هَيْئَةِ إِنْسَـان، وَاضَعَ ذَاتَهُ، وصَارَ مُطِيعًا حَتَّى الـمَوْتِ، الـمَوْتِ على الصَّلِيـبِ» (فل ٢/ ٦-٨).

في يسوعَ ومع يسوعَ، يصبحُ التّواضعُ قوّةً تُرسِّخُ قلبنا في الرحمةِ وتُنمّي فينا القدرةَ على استقبالِ ألمِ الآخرين ومرافقتِهم بلطفٍ. المتكبّرُ لا يعرفُ أن يرحم، لأن قلبَه ممتلئٌ من ذاتِه. أمّا المتواضعُ، ففارغٌ من كبريائه، ورحمتُه تتماهى مع المحبّة الإلهيّة كما يقول القدّيس يوحنا الذهبيُّ الفم: «ليس هناك شيءٌ يجعلُ الإنسانَ قريبًا من اللّه مثلَ الرحمةِ، لأنّ الرحمةَ هي صورةُ المحبّةِ الإلهيّةِ على الأرضِ».

تعلنُ أمُّنا مريمُ هذه الحقيقةَ في نشيدِها: «نظرَ إلى تواضعِ أَمَتِه» (لو ١/ ٤٨)، فهي تذكّرنا دومًا بأنّ القلوبَ الطيّبةَ وحدَها تميّزُ اللّهَ وتجليّاتِه في العالمِ. والقدّيسون، من فرنسيس الأسيزي إلى تيريزيا الطفل يسوع والوجه الأقدس وشارل دو فوكو مُلهم رهبنة أخوات يسوع الصغيرات... كلُّهم جسّدوا هذا الطريق: طريقُ الصِّغَر الذي يصبحُ مُثمرًا لأنّه يتّكلُ كلّيًّا على اللّه.

٣. ثمار فضيلة التواضع والصِّغر في الحياة المسيحيّة

الصغيرُ المتواضعُ في نظرِ الناس، هو الكبيرُ في عينيِّ اللّه. هذه الفضيلة التي عاشها يسوعُ نفُسه حين صار إنسانًا، طفلًا، عبدًا، هي البوابةُ التي تَدخل منها النّعمة إلى القلبِ. فضيلةُ الصِّغَرِ ليستْ ضعفًا، بل هي اختيارٌ حرٌّ لأنْ نعيشَ أمامَ اللّه كأبناءٍ صغار، واثقين بحبّه، معتمدين على رحمته، غيرَ متّكلين على استحقاقِنا. الصغيرُ لا يملكُ شيئًا ليحميه، لذلك يضع كلَّ ثقته في اللّه، ومن هنا تنبعُ ثمارُه الكثيرةُ.

- في الحياة الشخصيّة: التواضعُ يساعدُنا على قبولِ محدوديّتِنا وضعفِنا، والإتكالِ الدائمِ على اللّه بالفعلِ لا بالقولِ فقط. إنّه يعلّمُنا أن نقول بثقة: «أَللّهُمَّ، إِصْفَحْ عَنِّي أَنَا الخَاطِئ» (لو ١٨/ ١٣). التواضعُ يشفي القلب من الكبرياءِ الذي يعزلُنا عن اللّهِ وعن الآخرين.

- في الحياةِ الجماعيّة: نعيشُ زمنَ السينودسيّة التي أساسُها فضيلةُ التواضعِ والتي تخلقُ مناخًا من الأخوّةِ يساعدُنا على الإصغاءِ إلى الآخر بدونِ تعالٍ، وعلى المغفرةِ بدون شروطٍ، وعلى الخدمة بدون البحث عن المراكزِ الأولى. يقول القديس بولس: «لا تَفْعَلُوا شَيْئًا عن خِصَامٍ ولا بِعُجْبٍ، بَلْ باتِّضَاع، وَلْيَحْسَبْ كُلُّ واحِدٍ مِنْكُم غَيْرُهُ أَفْضَلَ مِنْهُ (فل ٢/ ٣).

- في رسالة الكنيسة: العالمُ لا ينتظرُ منّا كنيسةً تبحثُ عن السلطةِ، بل كنيسةً تركعُ لتخدمَ. الكنيسةُ المتواضعةُ هي التي يثقُ بها الناسُ ويصدّقونها ويتبعونها، لأنها تعكسُ وجهَ المسيحِ الخادمِ.

٤. فضيلة تعاكس إنحراف العالم

إنّ فضيلةَ الصِّغَرِ تجعلُ حياتنا اليوميّةَ، بكلِّ تفاصيلِها العاديةِ، مكانًا للنعمة، حيث يكفي أن نكون أوفياء في القليل، لنُفرّحَ قلبَ الآبِ السّماوي. لذلك، أدعوكم، أيّها الإخوة والأخوات، أبناء وبنات الأبرشيّة الأحبّاء، إلى جعلِ التواضعِ ممارسةً يوميّةً لا فكرةً نظريّةً.

- لأحبّائي الكهنة والمكرّسين والمكرّسات، أقول: تَذكّروا أنّ تكرُّسَكم وخدمتَكم الكهنوتيّةَ ليستْ ترقيةً اجتماعيّةً، بل خدمةً متواضعةً لشعبِ اللّه. الكاهنُ المتعالي يجرحُ الكنيسةَ، أمّا الكاهنُ المتواضعُ فيبنيها لتصبحَ على مدى المكانِ والزمانِ.
- للأهل أقول: في عائلاتكم، علّموا أولادَكم أنَّ العظمةَ الحقيقيّةَ لا تكمُنُ في السيطرةِ، بل في الخدمةِ. علّموهم أنّ السلامَ يأتي، لا محال، إذا عاشوا الصِّغَرَ، وحينها سيفرحون لأنّهم سيرَون يدَ اللّهِ في كلّ شيءٍ. لتكُنْ بيوتُكم أماكنُ تُعاشُ فيها البساطةُ بفرحٍ.
- وللعلمانيّين المؤمنين كافّةً، أقول: ليكنِ انخراطُكم في المجتمعِ مؤسَّسًا على حبّ الخيرِ العامِ وتفضيلِه على الخيرِ الشخصيّ، محترمين ضعفَ بعضِنا البعضِ، ساعين الى إنشاءِ عالمٍ أفضل. كونوا شهودًا لفرحِ الإنجيلِ البسيطِ.

وكمُبادرةٍ عمليّةٍ يُمكنُ أن نقوم بها على صعيدِ الأبرشيّةِ مجتمعين: أقترحُ أن نخصّصَ يومًا إمّا أسبوعيًّا إمّا شهريًّا في كلّ رعيّة لعبادةِ القربانِ المقدّسِ، نطلبُ فيه من الربِّ أن يمنحَنا قلبًا كقلبِ الطفلِ وروحِ التواضعِ والصِّغرِ. وليقدّمْ كلُّ واحدٍ منا، يوميًّا، عملَ محبّةٍ ملموسٍ تُجاه الفقراءِ، فهم أوّلُ انعكاسٍ لوجهِ المسيحِ بيننا. يذكّرُنا يسوعُ أنّ هذا هو شرطُ الدّخولِ إلى ملكوتِه ونحن نعرف أنّنا لن نبلغَ ذلك بجهدِنا، بل بنعمةِ الروحِ القدسِ. فبالروحِ نفسِه يقودُنا اللّهُ إلى الأمامِ، ويبيّنُ لنا طرقًا جديدةً.

لنسعَ في زمنِ اليوبيلِ لنكونَ صغارًا بحسبِ الإنجيلِ، فنستشعرُ ونخدمُ تدبيرَ اللّهِ ببساطةٍ وثقةٍ بنويّتَين. ولتشفعْ بنا أمُّنا العذراءُ مريم، الخادمةُ المتواضعةُ والأمُّ الأمينةُ، وتعلّمنا أن نحفظَ قلبَ الطّفلِ أمامَ إبنِها يسوع.

أباركُكم جميعًا

+ المطران أنطوان بو نجم
راعي أبرشيّة أنطلياس المارونيّة